الفصل الرابع

المسلمون في الغرب

من الأهمية بمكان أن نحيط بواقع الإسلام في الغرب؛ لأن الإسلام العظيم يتحرك دوماً في إطار الزمان والمكان ويصنع الحضارات، ويخاطب وجدان الناس على اختلاف أهوائهم ومشاربهم.

فمتى بدأ الإسلام في الغرب؟!

لقد انطلق الإسلام قوياً عظيماً ليدك معاقل الشرك في القسطنطينية، وأذن الله بأن تُفتح المدينة ويؤذّنَ فيها للصلاة، وكان ذلك على يد السلطان محمد الثاني الفاتح سنة ٨٥٧هـ، كما انطلق الإسلام غازياً وفاتحاً إلى صقلية وجنوبي إيطاليا ثم إلى أسبانيا أو الأندلس، وبعدها إلى فرنسا أو بلاد الغال حتى وصل إلى مدينة (بواتيه).

ثم انطلق المسلمون في حماستهم الدينية ليفتحوا أوروبا الشرقية والوسطى، إلى أن سيطرت الدولة العثمانية على أجزاء من جنوب شرقي أوربا.

ولكن علينا أن نبدأ الحكاية من البداية.

كان دخول المسلمين إلى أسبانيا على يد طارق بن زياد يوم السبت شهر شعبان سنة ٩٢هـ، وبعد فتح الأندلس انطلق المسلمون إلى جبال البرانس التي تفصل بين إسبانيا وفرنسا فاجتازوها ففتحوا أجزاء من جنوبي فرنسا إلى أن وصلوا إلى بواتيه جنوبي مدينة تور حيثُ مني المسلمون بالهزيمة في معركة بلاط الشهداء عام ١١٤هـ أمام جيوش الفرنجة بقيادة شارل مارتل.

وكانت هذه الموقعة نهاية حركة الفتح الإسلامي هناك، وخرج المسلمون من الأندلس دون رجعة سنة ٨٩٨هـ بعد أن ظلوا بها قرابة ثمانية قرون، وكان ذلك بالطبع في غربي أوربا.

أما في جنوبي أوربا فقد رفرفت راية الإسلام خفاقة على جزيرة كورسيكا إذ فتحها الأغالبة سنة ١٩٤هـ، كما سيطروا على جزيرة سردينيا بعد عام، وخضعت جزيرة كريت للمسلمين في العام نفسه، ثم أذن الله للمسلمين بفتح صقلية على يد أسد بن الفرات عام ٢١٢هـ، وبعد أربع سنوات تم فتح مدينة بالرمو قاعدة جزيرة صقلية وقطنها المسلمون.

لكن ضغط التحالف الصليبي الذي قاده البابا يوحنا الثامن أدى إلى إخراج المسلمين من صقلية عام ٤٨٤هـ.

ووصلت رايات الإسلام لتحلّق وترفرف في زهو وعزّة فوق أرض القوقاز وحوض نهر الفولغا في شرقي أوربا.

ففي عهد الفاروق عمر دخلت جيوش الفتح الإسلامي إلى القوقاز، فدخل سراقة بن عمرو أذربيجان، ودخل عبدالرحمن بن ربيعة داغستان.

وفي عهد الدولة العثمانية في القرن الثاني عشر للهجرة حيث صارت المنطقة بمثابة ولايات تابعة للدولة.

وفي القرن السابع الهجري حين دخل مغول الشمال (القبيلة الذهبية) إلى المنطقة ثم اعتنقت الإسلام في عهد بركة خان سلطان مغول الشمال.

وفي البلقان كان غزو الدولة العثمانية عام ٧٥٦هـ، ففتحوا بلغاريا والصرب بين عامي ٧٧٤-٧٨٨هـ، ثم البوسنة والهرسك سنة ٧٩٢هـ، وكرواتيا بعد عامين وألبانيا عام ٨٣٤هـ، ثم تم فتح القسطنطينية سنة ٨٥٧هـ، فالجبل الأسود سنة ٨٩٠هـ، وبلغراد سنة ٩٢٨هـ والمجر بعد خمس سنوات.

لكن لم يستطع المسلمون الاحتفاظ بتلك المناطق؛ لأن معظمها ضاع من قبضة الدولة العثمانية بانهزامها أمام التحالف الأوربي، وتم تقسيم ممتلكاتها بين الحلفاء بعد الحرب العالمية الأولى(*).

(*) راجع كتابنا: الدولة العثمانية في هذه السلسلة.

وتفصيل ذلك أنه بعد خروج الحملة الفرنسية من مصر والشام سنة ١٨٠١م بدأت الحركات الانفصالية عن الدولة العثمانية على يد كل من بشير الشهابي وضاهر العمر ومحمد علي وعلي بك الكبير، إلى أن تجمعت قوات أوربا وأجبرت محمد علي على التراجع عن التوسع الكبير في العالم في مؤتمر لندن ١٨٤٠م.

وقبل ذلك التاريخ بعشر سنوات احتلت فرنسا الجزائر، ثم انطلقت روسيا فاستولت على ممتلكات الدولة العثمانية في وسط آسيا بين عامي ١٨٦٥-١٨٧٣م.

ثم غافلت فرنسا العالم واستولت على تونس ١٨٨١م، بينما احتل الإنكليز مصر بعد عام واحد، ثم ابتلعت فرنسا المغرب.

واحتلت إيطاليا ليبيا، ثم كان الاتفاق الودي بين فرنسا وإنكلترا وكان من نتائجه تقسيم العالم الإسلامي بين الدولتين سنة ١٩١٦م.

وانطلق الصهاينة ليحصلوا على وعد بلفور بإنشاء دولة لهم في فلسطين بعد عام واحد.

وانكمش دور الدولة العثمانية على خريطة العالم السياسية حين استطاع مصطفى كمال أتاتورك القضاء على الخلافة الإسلامية في تركيا سنة ١٩٢٤م، وأعلن أنه بسبيل فرنجة بلاده.

واندلعت الحرب العالمية الثانية ١٩٣٩م، وانتهت ١٩٤٥م بتقسيم شبه القارة الهندية إلى دولتين هما: الهند وباكستان، وفي عام ١٩٧١م انقسمت باكستان إلى دولتين هما بنغلاديش وباكستان.

ومحاولة القضاء على الإسلام بإنهاك الدول العربية بالحروب مع إسرائيل التي كانت آخرها الانتصار على شوكة الاستعمار في الشرق الأوسط: إسرائيل عام ١٩٧٣م.

لكن بعد ذلك وقعت أحداث مؤسفة للتفرقة بين المسلمين، مثل إشعال حرب الخليج بين العراق وإيران، وغزو العراق للكويت، وغير ذلك من الفتن الاستعمارية التي لا تريد للإسلام ولا للمسلمين خيراً.

والآن، فلننطلق إلى الحديث عن الأقليات المسلمة في الغرب، في أوربا، في إنكلترا وفرنسا وشرقي أوربا.

إن عـدد المسلمين في أوربا ضـئـيل، وفي أي بلد أوربي لا يزيد عـدد المسلمين على بضعة ملايين.

ويختلف سبب مجيء هؤلاء إلى تلك البلاد، فقد يكون للبحث عن العمل، أو الدراسة أو اللجوء السياسي.

ومن المعلوم أن هؤلاء الوافـدين على دول أوربا أمكنهم أن يؤثروا في بعض أهالي أوربا، مما أدى إلى اعتناقهم الإسلام.

ألا فلينصر الله الإسلام، ولتعم دعوة التوحيد العالمين وليدخل الناس في دين الله أفواجاً.

أما بالنسبة إلى توزع المسلمين في أوربا فيجيء على النحو الآتي:

في شرقي أوربا: روسيا الاتحادية: نحو عشرين مليون مسلم، ويقطنون في شمالي القوقاز وحوض نهر الفولغا، وسيبيريا، وفي روسيا نفسها بل وفي موسكو.

في شرقي أوربا (الجمهوريات المستقلة عن الاتحاد السوفييتي): يقطن خمسة ملايين مسلم في جورجيا وأرمينيا ومولدافيا وليتوانيا.

في جمهوريات وسط أوروبا والبلقان: نحو عشرة ملايين مسلم في ألبانيا والبوسنة والهرسك وبلغاريا ومقدونيا.

وفي غربي أوربا: نحو أحد عشر مليون نسمة يتوزعون بين فرنسا وألمانيا وبريطانيا.

وفي جنوبي أوربا وبقية دول أوربا: نحو مليون مسلم.

ملحوظة:

يصل عدد المسلمين في أوربا إلى ثمانين مليوناً.

ويلاقي هؤلاء المسلمون في مهجرهم صنوفاً من الاضطهاد والتنكيل، ولنذكر ما يلقاه البوسنيون من اضطهاد الصرب لهم، وتعرضهم لمذابح تشيب لها الولدان، لقد سعى الصربيون إلى تصفية البلاد من أهل البوسنة، وذلك للقضاء على الإسلام واجتثاثه من أرضها.

ويكفي أن نتحدث عن دولة واحدة أوربية لنأخذ بها بعض الأحداث التي ترينا طرفاً مما يعانيه إخواننا المسلمون من عنت واضطهاد.

ولقد اخترنا أن يكون موضوع حديثنا عن فرنسا، التي يسعد معظم المسلمين بالذهاب إليها حسب تقديرهم.

إن فرنسا هي ثاني دول أوربا اتساعاً من حيث المساحة بعد روسيا، فهي تصل إلى ٥٤٧ ألف كيلو متر مربع، يحدها من الشمال الغربي بحر المانش، ومن الشمال الشرقي بلجيكا وألمانيا، ومن الشرق ألمانيا وسويسرة وإيطالية، ومن الجنوب أسبانيا والبحر المتوسط. وعدد سكانها نحو ستة وخمسين مليون نسمة.

أما عن تاريخ فرنسا فيتلخص في أن تلك الدولة استطاعت في عصر ملكها لويس الرابع عشر أن تفرض سيطرتها على أوربا. إلا أن هذه الهيمنة تعرضت للتقلص في عهد نابليون بونابرت الذي اجتمعت عليه دول أوربا واستطاعت أن ترده رداً حاسماً، بعد هزيمته في معركة واترلو سنة ١٨١٥م ليموت منفياً بعد ست سنوات أي سنة ١٨٢١م، لكنها -أي فرنسا- استطاعت احتلال الجزائر سنة ١٨٣٠م، كما تمت لها السيطرة على تونس والمغرب سنة ١٨٨١م وما بعدها.

ولا ننسى كم أفادت فرنسا من الإمبراطورية العثمانية وكيف تحينت الفرص لضربها في مقتل لتسيطر على أملاكها.

وما كان الانتداب والوصاية على العالم العربي الإسلامي إلا من بنات أفكارها بين الحربين العالميتين أي بين ١٩١٤-١٩٤٥م.

لكن متى وكيف دخل الإسلام الدولة؟!

لقد بدأ الفتح الإسلامي لفرنسا منذ عام ٧١٦ الميلادي، فافتتحت منطقة سبتمانيا، وأكيتائية وحوض نهر الرون.

لكن توقف الفتح حين استشهد القائد الأموي عبدالرحمن الغافقي في معركة بلاط الشهداء أمام تحالف قوات أوربا بقيادة الملك شارل مارتل، وذلك قرب مدينة بواتيه الفرنسية جنوبي مدينة تور.

لكن الملاحظ أن معظم المقيمين في فرنسا من المسلمين من مواطني دول المغرب العربي أي الجزائر وتونس والمغرب، وهم يعملون في فرنسا عمالاً أجراء، ويعانون من البطالة، وقلة من المسلمين الأتراك والأفارقة الذين هاجروا إلى فرنسا في الستينيات من القرن العشرين.

ثم هدى الله بعض الفرنسيين إلى الإسلام ومن هؤلاء روجيه جارودي المفكر الفرنسي الكبير الذي أسلم عام ١٩٨٣م، ومن أشهر كتبه (وعود الإسلام)، و(الإسلام في المغرب)، و(الأصوليات المعاصرة)، وفيليب جروني‌يه الطبيب الفرنسي الذي أشهر إسلامه عام ١٨٩٥م.

ورينيه جينو الذي أشهر إسلامه عام ١٩١٢م، وتسمى باسم عبدالواحد يحيى وألف عدداً من الكتب مثل (الشرق والغرب)، و(أزمة العالم الحديث).

وأنشأ المسلمون في فرنسا بعض المنظمات الإسلامية مثل: جمعية الدراسات والبحوث الإسلامية، والاتحاد الإسلامي الدولي، والتجمع الإسلامي في فرنسا.

لكن تواجه المسلمين في فرنسا عدة مشكلات خطيرة في مقدمتها مشكلة العنصرية والبطالة واتهامهم بالإرهاب.

ولقد قام المجتمع الفرنسي ولم يقعد حين أصرت فتاة مسلمة في فرنسا على ارتداء الحجاب في مدرسة فرنسية، فكانت جريمة كبرى في حق المجتمع الفرنسي الذي يؤثر النساء السافرات العاريات.

خاتمة

والآن حان الوقت لنتساءل؟

ماذا يراد بالمسلمين الآن في العالم وهم يعيشون عيشة تقترب من الكفاف، وقد لا يجد معظمهم لقمة العيش؟!

وكيف نستطيع أن نغيّر الأوضاع المتردية للمسلمين في أوربا من شرقيها إلى غربيها.

وهل يستطيع العرب والمسلمون أن يتدخلوا لتغيير الصورة لتصبح أفضل وأنصع؟!

وبالطبع فإن الوقت لا يزال معنا والفرصة لم تضع بعد، ويكفي أن نطرح بعض الأفكار رجاء أن تعود للمسلمين عزتهم وقوتهم، ومن هذه الأفكار:

– العودة إلى الإسلام الصحيح.. وقيام حكام العرب والمسلمين بعمل النشرات والبحوث الخاصة بأحوال أولئك المسلمين الذين يعدون أقليات في المجتمعات غير الإسلامية، وتنوير هذه الأقليات بالنظرة الصحيحة للإسلام.

– أن ينصرف المسلمون إلى حياة الجد والعمل، والبعد عن الكسل واللهو ليسهموا في التخفيف عن هؤلاء المسلمين الذين يقيمون في بلاد غير إسلامية.

– إرسال البعثات الإسلامية إلى تلك المجتمعات لتوضيح صورة الإسلام الصحيحة التي لا صلة لها بالإرهاب، والتي تدعو إلى الله بالحكمة والموعظة الحسنة.

– التبصير بأن الحجاب فريضة إسلامية في الإسلام، وأنه لا داعي لتلك المظاهر المتعصبة ضد الإسلام والمسلمين لمجرد أن فتاة أو ثلاث فتيات ارتدين الحجاب في مدرسة فرنسية بشمال باريس.. وذلك عام ١٩٨٩م.

obeikandl.com